ISSN للنسخة الإلكترونية: 2523 – 1871

الحياة العلمية في العصر العباسي

د. دلال الفيتوري•

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مدى اهتمام العرب والمسلمين بالتعليم؛ لما فيه من مرضاة الله، امتثالاً لقوله تعالي: ﴿ اقْرَأْ ﴾ التي جاءت بصيغة الأمر، إلى جانب تحقيق رغبتهم في التقدم والرقي في جوانب حياتهم جميعها، والتأكيد على مدى تأثير دور الخلفاء ورجال الدولة في دعم الحركة العلمية، ولو تخلى هؤلاء عن دعم العلماء فسد أمر الأمة. والمنهج المتبع هو المنهج السردي التاريخي، القائم على جمع المادة التاريخية وسردها؛ لإبراز الإيجابيات المتعلقة بالموضوع، وقد استنتجت أنه إذا وجدت الرغبة في التعليم فإن الشخص يستطيع أن يتخطى الصعاب كلها، وأن المؤسسات التعليمية هي امتداد لما كانت عليه قديماً، مع التطور في بعض الجوانب، بينما فكرة التدرج التعليمي واحدة. ومن أهم التوصيات التأكيد على الاهتمام بالجوانب التعليمية، التي تساعد على الرقي بالحياة العلمية في شتى المجالات، فلا يمكن التميز في أي علم إلا بتعلمه وإتقانه، كما أُوصي المهتمين بالحياة العلمية بالاطلاع على ما قدمه الأوائل، والاستفادة من كنوزهم العلمية.

الكلمات المفتاحية: الحياة العلمية – العصر العباسي

المقدمة:

لعل الذي دفعني إلى الكتابة في موضوع الحياة العلمية في العصر العباسي، محاولة بعض الباحثين طمس معالم حضارتنا في جانبها العلمي والفكري، والتركيز على استبدالها بالتعليم الغربي، واعتباره الأساس في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة، وقد يكون الدافع لهؤلاء إعجابهم بما توصل إليه الغرب حديثاً، متناسين بأن الغرب الأوروبي مرَّ في فترة من فترات تاريخه بعصور مظلمة، لم تقف حاجزاً يمنعه من البحث، وعلى هؤلاء أن يتذكروا أن المسلمين أصحاب فضل، فهم الذين سبقوا الغرب بدراسة العلوم، فقدموا من الأعمال ما أناروا به ظلمة تلك العصور، وكانت الحضارة العربية الإسلامية نبراساً في تلك الفترة، أضاءت الطريق، ومهدت

• عضو هيأة التدريس بقسم التاريخ جامعة بنغازي.

السبيل، فعلينا إعادتها وتجديدها؛ لنهتدي بها، وهذا لا يعني التقليل مما تواصل إليه الغرب من تطور في هذه الفترة، فقد استعانوا بكل ما أخذوه وتعلموه، ولم يضيعوا أي فرصة للبحث في شتى العلوم، التي كان المسلمون سباقين في دراستها، وتقديم المؤلفات فيها، ولن نصل إلى هذه الحقيقة من دون التعلم والتطور والتميز، لذلك علينا الإقبال على التعليم؛ من أجل رفع قدراتنا.

وكانت أهداف هذا البحث إبراز مدى اهتمام العرب والمسلمين بالتعليم؛ لما فيه من مرضاة الله، امتثالاً لقوله تعالي: ﴿ اقْرَأْ ﴾، التي جاءت بصيغة الأمر، إلى جانب تحقيق رغبتهم في التقدم والرقي في جوانب حياتهم جميعها، والتأكيد على مدى تأثير دور الخلفاء ورجال الدولة في دعم الحركة العلمية، ولو تخلى هؤلاء عن دعم العلماء فسد أمر الأمة.

وسبب اختياري لهذا الموضوع:

1- الاهتمام بالتطور العلمي؛ لدعم الحركة العلمية.

2- تسليط الضوء على ما وصل إليه العرب من تطور علمي؛ بسبب دعم الخلفاء لهم، لعل هذا يكون حافزاً لدعم التعليم عندنا.

3- عند اطلاعي على تاريخ الدولة العباسية، وجدتُ أنَّ ما توصل إليه العلماء في تلك الفترة وما وضعوه من مؤلفات قيمة كان نتيجة الرغبة والاهتمام والدعم، فإن غابت هذه النقاط غاب إنتاجهم العلمي، الذي كان مصدرَ معلوماتنا، وقد حاولت توضيح هذا من خلال ما توصلت إليه من مصادر ومراجع.

والمنهج المتبع هو المنهج السردي التاريخي القائم على جمع المادة التاريخية وسردها؛ لإبراز الإيجابيات المتعلقة بالموضوع.

وقد استنتجت أنه إذا وجدت الرغبة في التعليم فإن الشخص يستطيع أن يتخطى الصعاب كلها، وأن المؤسسات التعليمية هي امتداد لما كانت عليه قديماً، مع التطور في بعض الجوانب، بينما فكرة التدرج التعليمي واحدة.

وكان للعلوم العربية الأثر الكبير في المجالات كلها، فلا يستطيع أي شخص مهتم بالعلوم والتعليم أن ينكر جهد العرب فيما توصلوا إليه، أو لا يشير إلى المؤلفات العربية التي وصل صداها إلى وقتنا الحالي.

الحياة العلمية في العهد العباسي:

قد اهتمت الدولة العباسية بالتعليم اهتمامًا كبيرًا، فبعد استقرار دولتهم بدأت الحركة العلمية تأخذ مكانها، وتنمو وتزدهر، وأصبحت بغداد قبلة العلماء وطلاب العلم، وتأسَّست دُورُ العلم، وعظم شأن المدينة؛ بفضل تشجيع الخلفاء للعلم، فقدمت بغداد أعظم العلماء العرب والمسلمين، الذين كانوا رواد الحركة العلمية والفكرية في العصور الوسطى في العلوم كلّها، ونشطت حركة الترجمة، وأقيمت مجالس العلم، وحلقات الدرس والنقاش، ويجب ألَّا ننسى أن القرآن الكريم هو مصدرنا الأساسي في طلب العلم، وهو المرجع الأول الذي أشار في العديد من آياته إلى البحث والتعلم، فعلينا –كمسلمين– الاهتمام بذلك، وتقديم الدراسات التي تعيد للحضارة الإسلامية أمجادها، خاصة وأن القرآن الكريم أحد مقوماتها.

اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالتعليم:

قد أكدت الآيات القرآنية بشكل مباشر على العلم؛ كقوله تعالي: ﴿**وَقُل رَبِّي زِدْنِي عِلْماً**﴾ (سورة طه الآية 144). على عكس أوروبا في عصورها المظلمة، عندما حاربت الكنيسة كل من يحاول البحث في بعض الأمور، التي يدَّعون أنها محرمة كالأمور الطبية، "فسيطرة رجال الكنيسة منعتهم من البحث في الأمور الطبية، فقد اعتبروا تعلم الطب من المحرمات، وأن المرض –حسب رأيهم– عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه" (باركر، 1978، ص 100).

في الوقت الذي كان فيه المسلمون رواد العلم وسادته، وما قدموه آنذاك كان كافياً بأن يجعل جهابذة المفكرين الأجانب يعترفون بالأثر العظيم الذي حمله القرآن الكريم، وأن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن لترقى وتزدهر لو لم يكن القرآن الكريم أحد مقوماتها، والآيات التي تحض على طلب العلم والاستزادة منه كثيرة، " فانطلق علماء الإسلام يحققون نتائج مذهلة في العلوم الطبيعية والإنسانية، حتى غيروا مسار تلك العلوم قروناً وقروناً، كما تشهد بذلك ميادين الرياضيات، والبصريات، وعلم النبات، وعلوم الطب وفروعه؛ مثل: الجراحة، وأمراض العيون، وشؤون البيطرة، والصيدلة... ونشأت وترعرعت علوم: المعاجم، والنحو، والصرف،

والبلاغة، والموسوعات، وكتب التاريخ، وعلم الاجتماع، وإحياء فلسفة أرسطو التي كان الغرب قد نسيها، وأخذت شمس الحضارة الإسلامية تبدد الظلام الذي سيطر على أوروبا قروناً (هوفمان، 1993، ص ص 22–23).

كما يجب علينا ألا ننسي فضل القرآن الكريم في إخراجنا من الظلمات إلى النور، فهو من دعانا إلى طلب العلم، واحترام وتقدير العلماء، ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ (سورة المجادلة، الآية 11).

كما أمرنا بالبحث في آيات القرآن الكريم معتمدين "على أساس النظر العقلي، وأسلوب البرهان، واستخدام التجربة والمشاهدة والاختبار" (ياسين، 1980، ص 13).

والذي يقرأ القرآن بتفكر وتدبر، تجده أكثر الناس حرصاً على طلب العلم، فما تحويه آيات القرآن الكريم من الأمور العظيمة تحتاج إلى بحث علمي في الأمور الطبيعية؛ كاختلاف الليل والنهار، والعواصف والبرق والرعد، وغير ذلك من الأمور الإنسانية؛ كمسألة الخلق، والزواج والطلاق، وغيرها من الأمور التي جعلت القرآن الكريم الكتاب الوحيد الذي يشبع نهم أفئدتنا، ويروي ظمأ عقولنا "ولا شك في أن العلوم تزيد الإنسان تبصراً بقدرة الله جل جلاله، وكلما اكتشف الإنسان جديداً في بحثه ودراسته زاد إيماناً بالله" (درنيقه، 2002، ص23).

والقرآن الكريم هو المصدر الإلهي الذي عجز البشر على أن يأتوا بمثله، وهذا وحده إعجاز، ورحمة الله بالبشر هي دعوته المستمرة للتعلم والبحث، وعلى الناس ألا يقفوا عاجزين مكتفين بقراءته وتجويده، ولو كان الله يدعو إلى قراءته وحفظه من دون التعلم منه لذكر ذلك في آياته.

ومما يؤكد على أهمية التعلم ما جاء في أحاديث الرسول ﷺ: "مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها" (الألباني، 1421هـ، رقم الحديث 531). كما قال عليه الصلاة والسلام: "**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**" (الألباني، 1421هـ، رقم الحديث 71).

وتأكيداً على أن التعليم في الإسلام يتبوأ درجة عظيمة ومرتبة كبيرة، به ترفع الأقدار، وتحاز المغانم الكبار قول النبي ﷺ: " طلب العلم فريضة على كل مسلم" (الزركشي، 1406هـ، رقم الحديث 13385).

وقد وصف الرسول –عليه الصلاة والسلام– الأمية بالصفة المذمومة، التي لا تزول إلا بالتعلم، وفي هذا تبيان للغاية من بعثته بقوله: "**إن الله لم يبعثني مُعَنتاً ولا مُتَعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً**" (النيسابوري، 1374هـ، رقم الحديث 3088).

وكان لهذا الاهتمام الواضح بالتعليم أثر عند المسلمين الذين لبوا هذا الطلب بالإقبال على القراءة والكتابة، "وظهر ذلك جلياً في معركة بدر، حيث جعل النبي ﷺ جماعة من أسرى المشركين يفتدون أنفسهم من الأسر إذا علموا أولاد الأنصار الكتابة والقراءة" (درنيقة، 2002ص58).

كما أمرنا الرسول –عليه الصلاة والسلام– بطلب العلم وتحمل أعبائه والمصاعب في طلبه، وعدم التوقف عند حد معين؛ لأنه لا حد ولا عمر لطلب العلم، لذلك نجد أن "الطالب والعالم المسلم ينطلق إلى العلم وفي رحابه بهمة عالية، ونشاط كبير، وشغف بالعلم لا ينتهي، يتحمل في سبيله كل المتاعب، لا يدع فرصة إلا ويزداد فيها علماً، مما يدل على قوة الدافع وعمقه وحقيقته، واتساع أفق الهدف وإشراقه" (حسين، 1976، ص155).

فكان الرسول –عليه الصلاة والسلام– يدعو ربه قائلاً: ﴿وقل ربِ زدني علماً﴾، مؤكداً بأن القرآن الكريم يرفع العلماء إلى مراتب عليا، لا يسبقهم إليها إلا الملائكة والرسل، ﴿**شَهِدَ الله أَنَّه لا إِلَه إلا هوَ وَالمَلائِكَة وَأُلو العِلْم قائِماً بِالقِسْطِ**﴾ (سورة آل عمران، الآية 18).

لذلك أمضى الرسول ﷺ حياته كلها في تعليم المؤمنين أمور دينهم ودنياهم، فلا تمر عليه ساعة من الليل أو النهار إلا يغتنمها في تعليم أصحابه أمور دينهم، وما فيه صلاح دنياهم.

المراحل التعليمية:

إن الإنسان بطبيعته يحب التعلم والبحث، ويظهر ذلك جلياً عندما تنظر للمراحل التي مر بها الإنسان، فمنذ بدء الخليقة وجد نفسه من غير لباس فبحث عن شيء يقيه الحر والبرد، ومن غير مسكن فبحث عمّا يحميه من العوامل الخارجية والطبيعية، وعندما يجوع يبحث عمّا يشبعه، وعن الطرق التي تساعده على إعداد الطعام وحفظه، وإذا مرض فكّر فيما حوله، عسى أن يجد ما يخلصه من المرض، فكل شيء مرتبط بعقل الإنسان وفكره، يفكر لكي يرتقي من مرحلة إلى مرحلة أفضل في حياته، ومن هنا جاءت فكرة تعلمه؛ ليصل

إلى الأفضل، ولعل قصة سيدنا موسى عليه السلام خير دليل، عندما التمس من العبد الصالح مرافقته؛ ليتعلم منه: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىَ أَنْ تُعَلِمَنِ فِمَا عُلِمْتَ رُشْداً**﴾ (سورة الكهف، الآية 66).

فالمرحلة الأولي من التعلم هي القراءة؛ أي محو الأمية بتعلم القراءة والكتابة، ثم النظر في بقية مراحل التعلم؛ لأن القراءة وحدها لا تكفي، ففي الجاهلية كان هناك من يقرأ ويكتب، لذلك علينا التدرج في مراحل التعليم للارتقاء به، مطيعين أمر الله في قوله –بصيغة الأمر–: " ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِكَ الْذِي خَلَقَ❶خَلَقَ الإْنسَانَ مِنْ عَلَقٍ❷﴾ (سورة القلم، الآية 1–2). كما أن الله –سبحانه وتعالي– لا يقسم إلا بما له شأن عظيم ﴿**نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرونَ**﴾ (سورة القلم، الآية 31).

أي أن القراءة والكتابة مرتبطتان، فكل ما يكتب يقرأ، والكتابة تساعد على حفظ كل ما يقرأ من الضياع والنسيان، لذلك لم يعتمد على حفظ القرآن فقط، بل قام المسلمون بكتابته وجمعه؛ حتى لا يضيع أو يحرّف بعد موت حفظته، كما أشار العلي القدير إلى ضرورة التلقين في التعليم، وذلك عندما لقن آدم الأسماء كلها؛ ﴿**وَعَلَمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَهَا ثُمَ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاِئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين**﴾ (سورة البقرة، الآية 31).

إن الله لو لم يرد لآدم التعلم من البداية لما لقنه، فعلينا طاعة أوامر الله في ذلك، بأن نسمع ونفهم ونعي كل ما نتعلمه؛ للتفريق بين الجيد والرديء، قال تعالي: ﴿**الَذِيَنَ يَسْمَعُونَ القَولَ فَيَتَبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ (سورة الزمر، الآية 18).

ولم يحصر الله الإنسان في التعليم بالجانب الديني فقط، بل حثه على البحث في شتى مجالات المعرفة، وفي كل ما يخص حياته، فقال –عز وجل–: ﴿**قُلْ سِيرُوا في الأَرْض فَانْظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَ الله يُنْشِئُ النَشأَةَ الآخْرَةَ إِنَ الله عَلَى كُلِ شَيءٍ قَدِيرْ**﴾ (سورة العنكبوت، الآية 20). فجاءت فكرة المؤسسات التعليمية التي تدرّجت فيها المراحل التعليمية على حسب الاستيعاب الفكري للشخص.

المؤسسات التعليمية في العصر العباسي:

1- المسجد:

بعد الهجرة إلى المدينة، وبناء المسجد النبوي، اتخذ الرسول ﷺ هذا المسجد مكاناً للتعليم، فكان يجلس عقب كل صلاة مع أصحابه؛ ليعلمهم مبادئ الدين، ويناقشهم في أمور دينهم، فكان المسجد هو النواة الأولى للتعليم، وساهم في ازدهار الثقافة الإسلامية، بعد ما كان الرسول –عليه الصلاة والسلام– يعلم الناس أينما تيسر له ذلك، فلم يكن المسجد مجرد مكان للصلاة، بل تميّز بأنّه مكان للعبادة وتعلم العلوم الدينية وباقي العلوم، فظهرت الحِلَقُ في المساجد، حيث يجلس المعلم وحوله الطلاب، يسمعون ويكتبون المعلومات، وكان بعضهم ينتقل من حلقة إلى أخرى، فلكل فرع من فروع المعرفة حلقة، "فحلقة لفقيه، وحلقة لمحدث، وحلقة لقصاص أو لمفسر، وحلقة للغوي، وأخرى لنحوي، وثالثة لمتكلم، وكانت حلقات الفقهاء أكثر الحلقات ازدحاماً" (التليسي، 2002م، ص 255).

واستمر من جاء بعد الرسول ﷺ على نهجه بألّا تكون المساجد مكاناً للعبادة فقط، فكان للمسجد مكانة " في تأدية دوره في نشر العلوم والثقافة بكل فروعها، والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية المجيدة " (دياب، 1992، ص 36).

2- الكُتّاب:

حيث يجتمع فيها عقب كل صلاة من يرغب في تعلّم القرآن الكريم وحفظه وتجويده، كما يتعلم من خلالها الأطفال القراءة والكتابة والمبادئ الأساسية للإسلام، " وعادة كان النشء يبدأ بالتعليم في الكتاتيب، حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وبعض سور القرآن، وشيئاً من الحساب، وبعض الأشعار والأمثال " (ابن سحنون، 1972، ص102).

كما كان "بعض معلمي هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة –أيضاً– السنن والفرائض والنحو والعروض" (الجاحظ، 1998، 214/2). ويمكن القول: "إن الكُتَّاب في ذلك الوقت كان أشبه بالمدرسة الابتدائية إلى حد كبير في الوقت الحاضر" (السباعي، 1968، ص131). ولا تزال فكرة الكتاتيب موجودة في المساجد حتى الآن.

3- المدارس:

جاءت فكرة المدارس من الحِلَق التي تدار داخل المساجد لتعلّم العلوم، خاصة العلوم ذات الطابع الديني، وبعد أن زاد عدد المقبلين على التعلّم، وحتى لا يحدث تداخل بين الحلقات ومواضيع التدريس فيها والمصلين الذين يأتون إلى المسجد، كان من الضروري إنشاء المدارس؛ لتكون مكاناً للتعلم، وقد انتشرت في المدن الإسلامية أغلبها، ويجمع المؤرخون على أنَّ أول من أسس مدرسة في الإسلام " هو الوزير نظام الملك، الذي تنسب إليه المدارس النظامية، وأشهرها المدرسة النظامية في بغداد، التي أسست عام 457 هجرية، والتي يعتبرها المؤرخون أسبق المدارس النظامية إلى الظهور" (شميساني، 1983، ص13).

وقد أُلحقت هذه المدرسة بمكتبة ضخمة كباقي المدارس الأخرى، و" زُوِّدت بكل غريب ونادر، وكانت هذه المكتبة محط أنظار طلاب العلم والدارسين، فكانوا شديدي العناية بها، حتى إنَّه لما شبت النار في الأماكن المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، وانتقل الحريق إلى المدرسة فاحترقت المكتبة، ولكن الكتب نجت من الحريق بفضل همة الأساتذة والطلاب وغيرهم، الذين نقلوها قبل أن تصل النار إليها" (ابن الجوزي، 9 / 184).

ومن بين المدارس التي اشتهرت "المدرسة المستنصرية ببغداد، التي أسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله، وقد بدأ في بنائها سنة 625 هجرية، وافتُتِحتْ سنة 631 هجرية" (معروف، 1965م، 42/1).

وقد استمر بالمدرسة المستنصرية فترة طويلة " تخللتها فترتان؛ الأولى بسبب الغزو المغولي لبغداد عام 656 هجرية، والثانية دخول جيوش تيمورلنك، واحتلالها لبغداد مرتين في سنة 795 هجرية وسنة 803 هجرية " (معروف، 1965م، ص43).

واحتوت هذه المدرسة على مكتبة ضخمة " نقل إليها من الكتب النفيسة، والأصول المضبوطة، التي احتوت على جميع العلوم والربعات الشريفة مائتين وتسعين حملاً، بالإضافة إلى ما نقل إليها بعد ذلك من كتب أخرى " (الإدلبي، ص 288).

ومن بين العلوم التي كانت تدرس في المدرسة المستنصرية " علم الأصول والفروع... وعلم القوافي، وأحاديث الرسول... والفرائض والتركات، وعلم الحساب والمساحات، وعلم الطب، ومنافع الحيوان، وحفظ قوام

الصحة، وتقويم الأبدان " (الأدلبي، ص 287). وبانتشار المدارس توفرت فرص التعليم لكثير من الناس في سائر البلاد الإسلامية.

4- بيوت الحكمة:

أول بيت حكمة أنشئ في بغداد، وقد أنشأه الخليفة العباسي هارون الرشيد، وكانت تلك البيوت تضم مكتباتٍ كبيرةً، ساعدت طلاب العلم في الارتقاء بأفكارهم، كل حسب مجاله، مما شهدته هذه البيوت من حلقات نقاش وأعمال البحث والترجمة، وكانت مدعومة من الأمراء والخلفاء، الذين تنافسوا فيما بينهم؛ لدعم الحركة العلمية " وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة بمختلف الكتب، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة 656 هـ / 1258م" (حسن، 1964م، ص408).

ونظراً لاهتمام العباسيين بهذه المؤسسة نشطت حركة الترجمة والتأليف، وتقدمت صناعة الورق، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها؛ للتزود من العلم، فكثرت المكتبات التي تزخر بجميع أنواع الكتب، حتى أصبحت من أهم المراكز الثقافية الإسلامية، ولعل "من أشهر المكتبات في العصر العباسي مكتبة نوح بن نصر الساماني" (ابن خلكان، 1968، 152/1). "ومكتبة الصاحب إسماعيل بن على" (حسن، 1964م، ص408)، و"مكتبة مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم آخر خلفاء العباسي ببغداد، المشتملة على عشرة ألاف مجلد من نفائس الكتب"(حسن، 1964م، ص408).

وقد استفاد العلماء من هذه المكتبات في وضع مؤلفاتهم القيمة، ولعل ما ذكر ياقوت من إفادته من الكتب التي ساعدته على جمع مادة كتابة معجم البلدان خير دليل، عندما قال: كنت أرتع فيها وأقتبس فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وألهاني عن الأهل والبلد، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن" (ابن خلكان، 1968، 184/5).

5- المجالس العلمية:

إلى جانب تلك المؤسسات كلها، كانت هناك المجالس العلمية، التي تعقد في بيوت العلماء؛ لمناقشة المسائل العلمية، كما ظهرت مجالس الخلفاء، الذين خصصوا في قصورهم أماكن خاصة لعقد مثل هذه

المجالس؛ ليتناقشوا فيها في مختلف الموضوعات، وكان كثير من الخلفاء يشاركون في هذه النقاشات، ويبدون رأيهم في العديد من القضايا، فالخليفة العباسي "هارون الرشيد، وابنه الخليفة المأمون الذي كان من مشجعي العلم الكبار، كان يجتمع في مجلسه الكثير من الفقهاء ورجال العلم والفلاسفة والأدباء والشعراء من جهات متعددة من العالم الإسلامي، فيجلس إليهم ويناقشهم في كثير من المسائل والقضايا في موضوعات متنوعة، ويشملهم جميعاً برعايته بما يبذله لهم من المنح والعطايا" (دياب، 1992، ص 37).

وهذا حال كثير من خلفاء الدولة العباسية، حتى من لم تكن له اهتمامات علمية كان يقدم المنح والعطايا؛ لتشجيع العلم والعلماء، وقد كان لاهتمام الخلفاء بالعلماء نتائج جيدة تصب في صالح الحياة العلمية، فازداد عدد العلماء المتخصصين في كل علم وفن، "يُروى أن النضر بن شُميل –تلميذ الخليل بن أحمد الفراهيدي– حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيعه نحو ثلاثة ألاف شخص بين محدث ونحوي ولغوي وعروضي وأخباري" (الحموي، 1979م، 238/9).

ولم يكن الخلفاء وحدهم يغدقون عطاياهم الجزيلة على العلماء، بل جاراهم في ذلك الولاة وكبار القادة فـ"مكتبة علي بن يحيى المنجم، تقدم المأوى والطعام للطلبة الغرباء، فيما كانت مكتبة جعفر بن حمدان الموصلي تقدم أوراقاً ودراهم لطلاب العلم الفقراء" (العمدة، 2010م، ص239).

"وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة الخليفة المهدي العباسي، فإنه أكثر من مكافأة العلماء، مما جعلهم يشدون إليه الرجال من كل بلد، واقتدى به في ذلك ابنه الرشيد، ويقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم" (الطبري، 541/6). وكان "المأمون أكثر الخلفاء العباسيين اهتماماً وعطاء للعلماء، فقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم" (القفطي، 1986م، 349/3).

إن تشجيع الخلفاء العباسيين للعلماء كان عاملاً من عوامل ازدهار الحركة العلمية، فقد فتحت أبواب المعرفة أمام الجميع، ويكفي أن نشير إلى " جرجيس بن بختشيوع الفيلسوف الطبيب النصراني، ونوبخت وولده سهل، كانوا جميعاً من العلماء المقربين من الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي، وقد وكّل الرشيد ديوان الترجمة إلى يوحنا بن سوية، فظل في خدمة الخلفاء العباسيين حتى عهد المتوكل" (ابن أبي أصيبعة، 1965م، ص487).

وقد كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم في الدولة العباسية؛ لميله إلى تحصيل العلم والمعرفة، والمساعدة على نشرها، فهو من أمد بيت الحكمة ببغداد بمختلف أنواع الكتب، فأصبح يجتمع العلماء؛ "للترجمة والتأليف والدرس، وجهز أماكن خاصة للناسخين؛ لنسخ الكتب لأنفسهم ولغيرهم بأجور معينة، وأشرف عليه موظف عرف باسم صاحب بيت الحكمة، كان الخلفاء يختارونه ممن اتصف بسعة العقل والأمانة العلمية" (حسن، 1963م، ص402).

وكان المأمون يميل إلى حرية الفكر، ويجلس بنفسه للمناظرة بين العلماء؛ لإزالة الخلاف بينهم، "فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدْخِلوا حجرة مفروشة... ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين" (المسعودي، 342/3)، ويظهر أن المأمون كان يرمي من عقد هذه الاجتماعات لـ"أن يصل إلى الاتفاق على رأي واحد في مسألة خلق القرآن وموضع الخلاف؛ حتى تتفق كلمة الأمة في تلك الأمور، التي كانت مصدر شقائها وبلائها" (حسن، 1963م، 257/2).

كما اهتم المأمون بحركة الترجمة، التي ساعدت على تقدم النهضة العلمية، لذلك تُرْجِمَت الكتب اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية؛ بفضل تشجيعه وبذله من الأموال الضخمة في هذا السبيل، وأرسل لذلك البعوث إلى القسطنطينية؛ لنقل ما فيها من الكتب إلى العربية" (ابن النديم، 1971م، ص 339).

العلوم التي ظهرت في العهد العباسي:

سعت الدولة العباسية كسائر الدول الإسلامية الأخرى لتقديم الأفضل في الحركة العلمية، فظهر في بغداد عدد كبير من المؤلفات العلمية، التي ساهمت في نشر العلم العربي والإسلامي في مختلف الآفاق، وعاش فيها أعظم علماء العرب والمسلمين، الذين قدموا مؤلفاتهم القيمة في جميع المجالات، فصنفت العلوم إلى علوم نقلية أو شرعية، وتشمل:

- **علم القراءات:**

الذي وضع مقاييس لقراءة القرآن؛ حتى تكون قراءة صحيحة بسبب اختلاف اللهجات، ومن أشهر القرّاء في العصر العباسي عبد الله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي، الذي اشتهر بالقراءات والحديث والنسب والفرائض والتفسير والحساب، وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات المختلفة، وكان بجانب

إلمامه بالعلوم الدينية شاعراً، "وإن لم يؤثر عنه أنه كان من فحول الشعراء، وقد توفي ابن الخشاب ببغداد سنة 567هـ" (ابن خلكان، 1968، 288/2).

- **علم التفسير:**

لاشكَّ في أنَّ العرب الذين عاصروا نزول الوحي، قد أدركوا معانيه، ووقفوا على الأسباب التي أدت إلى نزول الآيات القرآنية، غير أن باقي الأمم الإسلامية، كان يصعب عليهم إدراك معاني الآيات وأسباب نزولها، لهذا نشأ علم التفسير، ومن أشهر مفسري العصر العباسي "الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضى، المتوفى سنة 436هـ، وكانت له أمالٍ في الشعر والأدب، شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره، ومن أشهر مفسري المعتزلة في هذا العصر العباسي أبو يونس عبد السلام القزويني ت 483هـ، وقد فسر القرآن تفسيراً مطوّلاً، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع مجلدات" (حسن، 1964م، 420/2).

- **علم الفقه:**

ظهر في العصر العباسي بعض أعلام الفقهاء، الذين كوّنوا لهم مذاهب في الفقه، إلَّا أنَّ هذه المذاهب لم يقدر لها الذيوع أمام المذاهب الأربعة "ومن فقهاء هذا العصر داود الظاهري" (ابن النديم، 1971م، ص 305). وكانت طريقته الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة، وعدم قبول الرأي والقياس" ولذلك سمي داود الظاهري، ويعرف أتباعه بالداودية أو الظاهرية" (ابن النديم، 1971م، ص 305).

والظاهرية جعلوا المدارك منحصرة في التصوف والإجماع، وردوا القياس إلى النص وبذلك "خرج داود على علم الأصول والقواعد الفقهية التي وضعها أئمة المذاهب الأربعة، ولا سيما الإمام الشافعي" (حسن، 1964م، ص425)، "ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم" (دياب، 1972، ص211).

- **العلوم العقلية:**

وتضم: الطب، والكيمياء، والفلسفة، والصيدلة، والرياضيات، والفلك، وهذه العلوم ارتبطت بعقل الإنسان وتفكيره؛ لما فيها من معلومات دقيقة، وتجارب علمية، ومسائل حسابية، وقد استفاد العالم من تجارب العلماء المسلمين في هذه العلوم، فلا يخفى جهد محمّد بن موسى الخوارزمي، الذي ألف رسالته المشهورة حساب الجبر والمقابلة "وكان الخوارزمي من العلماء الذين رعاهم وشجعهم الخليفة المأمون، وكان من العلماء الذين انقطعوا للعمل في المكتبة الشهيرة ببيت الحكمة في بغداد، وفيها ألف أهم مؤلفاته في الرياضيات" (القفطي، ص 115).

وممن اشتهر عند العباسيين ثابت بن قرة الحراني، الذي عاش في زمن الخليفة المعتضد، وكان بارعاً في عدة علوم؛ كالمنطق، والحساب، والهندسة، والتنجيم، "وقد بلغ عند المعتضد منزلة عالية، حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت، ويحادثه طويلاً" (القفطي، ص 115). وجابر بن حيان الذي أقام في الكوفة، وكان "متقدماً في العلوم الطبيعية، بارعاً في صناعة الكيمياء، وله فيها مؤلفات كثيرة، ومصنفات مشهورة، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة، ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام" (دياب، 1972، ص211). وجابر بن حيان يعد من أكبر علماء العرب والمسلمين في علم الكيمياء، ويعود الفضل إليه في اكتشاف العديد من المركبات الكيميائية.

كما اهتم العباسيون بنشر الثقافة الطبية وتقدمها، وذلك بترجمة ما خلفته الشعوب التي سبقتهم في هذا المجال، حتى أصبحت بغداد من أهم مراكز الثقافة الطبية في الشرق، وهذا بفضل إقبال الناس على التعليم، وتشجيع الدولة للعلماء، لذلك يعتبر التعليم ضرورة من ضروريات الحياة، وهو الركيزة الأساسية لأي تطور اجتماعي واقتصادي، ويعتبر الجسر الوحيد لعبور المستقبل، فالتعليم شيء ضروري للوصول إلى المعرفة الحقيقية.

فبعد كل ما تقدم –وهو قليل من كثيراً– يجب علينا الإقبال على التعليم، والاهتمام بالعلم؛ لأنه شعبة من شعب الإيمان، ففيه اتباع أوامر الله، وابتعاد عن نواهيه، وفيه خدمة للبشرية، من أجل علاج كثير من المشاكل التي تعاني منها الأمة، وعلى رأسها الجهل، الذي لا يسمح بالتقدم ولو بخطوة.

ومن هنا يمكن لنا أن نفهم أن الدول والأمم تحتاج إلى العلم والمعرفة؛ لكي تتقدم وتزدهر، فليس بالسياسة والاقتصاد تسير الدول، وإنما يتعلم هذه الأمور ودراستها؛ حتى تكون في سياقها الصحيح، فبالعلم النافع يُبني الإنسان، وبه تقوم الدول، فعلينا الإقبال على العلم، فالعلم نور، ولعلي فيما ذكرت تذكير للمسلمين بالعودة إلى القرآن الكريم، الذي يدعوهم إلى التعليم؛ لتفتح بصائرهم وأفئدتهم، وحتى يقبلوا على العلوم المختلفة، وعلى أصحاب الرأي دعم المتعلمين؛ ليقودوا الحركة العلمية، ويسيروا بالوطن إلى الأمام.

قائمة المصادر والمراجع:

1. **أولاً: القرآن الكريم** بالرسم العثماني، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

ثانياً: المصادر:

2. ابن أبي أصبيعة، أحمد بن القاسم بن خليفة (1965)، عيون الأنباء في طبقات الأحياء، شرح وتعليق نزار رضا، مكتبة الحياة.
3. ابن الجوزى، أبو الفرج عبد الرحمن على المنتظم في تاريخ الأمم والملوك.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (د. ت)، المقدمة، بيروت، دار الفكر.
5. ابن خلكان، شمس الدين (1986م)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة.
6. ابن سحنون، محمد (1972م)، أدب المعلمين، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس.
7. ابن النديم، أبو الفرج محمد (1971م)، الفهرست، تحقيق رضا محدّد، طهران.
8. الألباني، محمد ناصر الدين (1421هـ)، صحيح الترغيب والترهيب، بيروت، مكتبة المعارف.
9. الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني (1998م)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي.
10. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (1979م)، معجم الأدباء، بيروت.
11. الزركشي، محمد بن عبد الله (1406هـ)، اللآلي المنشورة في الأحاديث المشهورة، بيروت، دار الكتب للعلم.

12. الطبري، محمد بن حرير (د. ت)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان.
13. القفطي، جمال الدين (1903م)، تاريخ الحكماء، بغداد، مكتبة المثني.
14. أنباء الرواة على أنباء النحاة (1986م)، القاهرة، دار الفكر العربي.
15. المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين (د. ت)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصر.
16. النيسابوري، مسلم بن الحجاج (1374هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء الكتب العربية.

ثالثاً: المراجع:

17. الإربلي، عبد الرحمن سنبط قنيتو (د. ت)، خلاصة الذهب المسبوك، تصحيح مكي السيد جاسم، بغداد، مكتبة المثني.
18. باركر، أسرار نست (1978م)، الحروب الصليبية، ورد ضمن كتاب تراث الإسلام السيرتوماس أرلوند، تعريب جرجس فتح الله، بيروت، دار الطليعة.
19. التليسي، بشير رمضان وجمال هاشم الذويب (2002م)، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، دار المدار الإسلامي.
20. حسن، إبراهيم حسن (1964م)، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
21. حسين، كريم عجيل (1976م) الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية، بيروت، مؤسسة الرسالة.
22. خليل، ياسين (1980م)، العلوم الطبيعية عند العرب، بغداد، مطبعة الجامعة.
23. درنيقة، محمد أحمد (2002)، القرآن والعلم، بيروت، شركة الأرقم بن أبي الأرقم.
24. دياب، مفتاح محمد (1992م)، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، بنغازي، دار الكتب.
25. السباعي، مصطفي (1968م)، من روائع حضارتنا، بيروت، دار الإرشاد.

26. شميساني، حسن (1983م)، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

27. العمدة، إحسان ومحمود عوّاد وصادق جودة (2010م)، تاريخ الدولة العباسية، القاهرة، الشركة العربية المتحدة.

28. معروف، ناجي (1965م)، تاريخ علماء المستنصرية، بغداد، جامعة بغداد.

29. هوفمان، مراد (1993م)، الإسلام كبديل، ترجمة غريب محمد غريب، الكويت.

رابعاً: الإنترنت:

30. موقع موضوع متاح على الرابط **Wawdoo3. com**.